◘ قَالَ المُصَنِّفُ : (وكُتُبِهِ) :

📖 الشَّرْحُ :

● الكُتُبُ : جَمْعُ كِتَابٍ ؛ قَالَ الأَزْهَرِيُّ : الكِتابُ اسْمٌ لِمَا كُتِبَ مَجْمُوعًا (١) .

فيَجِبُ الإيمانُ بجميعِ الكُتُب السَّماوية التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على عبَادِهِ ؛ رَحْمَةً بهم ؛ لأَنَّهم بِهَا ، يهتدُونَ إلى الصِّراط المسْتَقيم ، وإلى الطريق الذي يصِلُ بهم إلى جناتِ النعيم ، ويُحْجَبُون عن نارِ الجَحِيْمِ .

فبِغَيْرِ إِنْزَالِ الكُتُبِ ، وإرسَالِ الرُّسُلِ ما استطاع أَحَدٌ أن يَعْبُدَ اللهَ عَلَى بصيرةٍ ، وكما يُحِبُّ وَيَرْضَى ؛ فَإِنْزَالُ الكُتُبِ مِنَّةٌ مِنَ اللهِ على العِبَادِ ؛ حَتَّى يَنْتَفِعُوا بها ، ويَعْمَلُوا بِمَا فِيْهَا من أوامِرَ.

◘ الإِيْمَانُ بالكُتُبِ يَتَضَمَّنُ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ (٢) :

● الأَوَّلُ : الإِيْمَانُ بأَنَّ نُزُولَهَا مِنْ عندِ اللهِ حقًّا :

فالكُتُبُ مُنَزَّلَةٌ من عند الله ؛ فلَيْسَتْ مِنْ كَلامِ بَشَرٍ ، ولا تَطَرَّق إليها التَّحْرِيْفُ ، ولا يستطيع أحَدٌ أن يأتي بمثلها .

وأنزلها الله عن طريق الوحي ، وهو جبريلُ عليه السلام ؛ فيَصِلُ الوَحْيُ إلى الرَّسُلِ .

● الثَّانِي : الإِيْمَانُ بِمَا عَلِمْنَا اسمَهُ ، مِنْهَا :

هناك كُتُبٌ ذُكِرَ اسْمُهَا في القرآن ؛ مثل : التَّوْرَاةِ التي أُنْزِلَتْ عَلَى مُوسَى ، والإِنْجِيْلِ على الذِي أُنْزِلَ عَلَى عيسى ، وصُحُفِ إبراهيم ، وهُنَاكَ – أَيْضًا – صُحُفُ مُوسَى ، والزَّبُورُ الذي أُنزل على داود ؛ فكُلُّ ذلك ؛ فلابُدَّ أن نُؤْمِنَ بِهِ ، وأمَّا ما لم نعلم اسمَهُ يجِبُ الإيمانُ به جملةً .

---

(١) " لسان العرب " (٦٩٨/١) .

(٢)" شرح الثلاثة أصول " – للعثيمين – (ص:٤٨) .

● هُنَاكَ نِزَاعٌ بَيْنَ أهلِ العلم : هَلِ التَّوَرَاةُ هِي نَفْسُهَا صُحُفُ مُوسَى ، أَمْ هُنَاكَ اخْتِلافٌ :

وفي المسألَةِ قَوْلانِ لأَهْلِ العِلْمِ مَشْهُورَانِ : فمِنْهُم مَنْ قَالَ : إنَّ صُحُفَ مُوسَى هِيَ نَفْسُهَا التَّوَرَاةُ ، ومنْهُم مَنْ قَالَ : إنَّ التوراة غيرُ صُحُف مُوسَى ؛ فَعَلَى القَوْلَيْنِ هِي ذُكِرَتْ في القُرْآنِ عَلَى هذا الوَجْهِ ؛ فنُؤْمِنُ أنها من عند الله سبْحَانَهُ وَتعَالَى .

● الثالثُ : تَصْدِيْقُ مَا صَحَّ مِنْ أَخْبَارِهَا :

ذَكَرَ القُرْآنُ أَشْيَاءَ عن هَذِهِ الكُتُبِ ؛ فلابُدَّ أن نُصَدِّقَ مَا ذُكِرَ فِيْهِ ، وَمَا دون ما ذُكِرَ في القرآنِ والسُّنَّةِ لا نُصَدِّقُهُ ؛ لأَنَّ التَّوْرَاةَ والإِنْجِيْلَ الموجُودَانِ (الآنَ) هُمَا مُحَرَّفَانِ ، ولكن لَيْسَ كُلُّ مَا فيهما محرَّفٌ ؛ فالنَّاسُ في ذلكَ بَيْنَ إفراطٍ وتفريطٍ ؛ فتَسْمَعُ أحدَهُمْ يقُولُ : إنَّ التوراة كُلَّها محرفةٌ ، وكذلك : الإنجيلُ ؛ فيهما أشياءُ كثيرةٌ محرفَةٌ ، ولكن ليس كل ما فيهما ، ونحن نؤمن بالذي ورد فيهما موافقًا لكتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، أما الخرافاتُ التي دَسُّوها فيهما ؛ فلا نُؤْمِنُ بها ولابد أن نكذِّبَها ، مِثْلُ : ما قَالُوهُ أَنَّ عِيْسَى ابْنُ اللهِ !! فهذا ضلالٌ مبينٌ ، وتكذِيْبٌ للقرآنِ ، وكُفْرٌ باللهِ العظيم .

● الرَّابِعُ : العَمَلُ بأحكامِ مَا لَمْ يُنْسَخْ ، مِنْهَا :

هناك أحكامٌ في القرآنِ نُسِخَتْ ، وأَحْكَامٌ لم تُنْسَخْ ؛ فَنَحْنُ ذَكَرْنَا أنَّ النَّسْخَ : هو رَفْعُ الحُكْمِ أَو تَغْيُّرُهُ ؛ إمَّا بالتخفيفِ ، وإما بالتشديدِ ؛ فمثلاً : كانت الخَمْرُ في البداية مباحًا شربها ، ثُمَّ حرَّمَها اللهُ تدريجيًّا ؛ فبدأ فِيها بقولِهِ : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ [البقرة:٢١٩] ؛ فلما نزلتْ بَدَأَ الصحابةُ يَسْأَلُون عَنْ حُكْمِهَا ؛ فالقَلْبُ بَدَأَ يتحرَّكُ نَحْوَ الإيمانِ ، ويَنْفِرُ عَنِ الأشياءِ الخَبِيْثَةِ .

● وهذه طبيعَةُ النفسِ السَّوِيَّةِ المُسْتَقِيْمَةِ :

تجِدُهَا تَنْفِرُ عن المعاصي ؛ ظاهِرِهَا وباطِنِهَا ، وعَلَى قَدْرِ سلامة النَّفْسِ عَلَى قَدْرِ نُفُورِهَا من المعاصي ، وكُلَّما خَبُثَتْ مَالَتْ إلى حُبِّ المعاصي والسَّعَادَةِ بها .

فالسعادَةُ بالمعصيةِ نَوْعٌ من خُبْثِ النَّفْسِ والنُّفُورِ مِنَ المعاصي وأهلها ، والأفعالُ السيئةُ دَلالةٌ على صلاحها .

إنَّ بعضَ النَّاسِ ربَّما يَقُولُ عنْ إنسانٍ غيرِ مستقيمٍ في دينِهِ ، ويرتكبُ المعاصي : إنَّهُ طيّبُ النَّفْسِ !! فنقولُ : هذا فهمٌ غيْرُ صَحِيْحٍ ؛ لأنَّ الطَّيِّبَ مَا طيَّبَهُ الشرعُ ، والخبيث ما خبَّثَهُ الشرعُ ؛ فلن تكون نفسُهُ طيبةً ، وهي تحبُّ المعاصي ؛ فالنفْسُ الطيبةُ هي التي تَنْفِرُ عنِ المعاصي ، وعَنِ الخبَائِثِ .

● قال الإمامُ القُرْطُبِيُّ – رَحِمَهُ اللهُ – : " تَحْرِيمُ الْخَمْرِ كَانَ بِتَدْرِيجٍ وَنَوَازِلَ كَثِيرَةٍ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُولَعِينَ بِشُرْبِهَا ، وَأَوَّلُ مَا نَزَلَ فِي شأنها (يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ) [البقرة: ٢١٩] ؛ أَيْ : فِي تِجَارَتِهِمْ ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ تَرَكَهَا بَعْضُ النَّاسِ ، وَقَالُوا : لَا حَاجَةَ لَنَا فِيمَا فِيهِ إِثْمٌ كَبِيرٌ، وَلَمْ يَتْرُكْهَا بَعْضُ النَّاسِ وَقَالُوا : نَأْخُذُ مَنْفَعَتَهَا وَنَتْرُكُ إِثْمَهَا ؛ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : " لَا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكارى " [النساء: ٤٣] ؛ فَتَرَكَهَا بَعْضُ النَّاسِ وَقَالُوا : لَا حَاجَةَ لَنَا فِيمَا يَشْغَلُنَا عَنِ الصَّلَاةِ ، وَشَرِبَهَا بَعْضُ النَّاسِ فِي غَيْرِ أَوْقَاتِ الصَّلَاةِ ؛ حَتَّى نَزَلَتْ : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ " الْآيَةَ – فَصَارَتْ حَرَامًا عَلَيْهِمْ ؛ حَتَّى صَارَ يَقُولُ بَعْضُهُمْ : مَا حَرَّمَ اللَّهُ شَيْئًا أَشَدَّ مِنَ الْخَمْرِ " (١) .

● والاجْتِنَابُ أَشَدُّ مِنَ التَّحْرِيمِ :

لأنَّ الاجْتِنَابَ مَعْنَاهُ : أَنْ لاَ تأتِيَ المكَانَ الذي فيه الشَّيءُ المُحَرَّمُ ؛ فأنتَ مَنْهِيٌّ عَنْ مُجَرَّدِ القُرْبِ .

---

(١) " تفسير القرطبيّ " (٦/٢٨٦) .

وفي المقابلِ قد تجلسُ في مكانٍ فيهِ محرَّمٌ ؛ لكنك لا تفعلُهُ .

لكنَّكَ حين تؤْمَرُ بالاجتنابِ وعدمِ الاقترابِ من شيءٍ مَا ؛ فإنَّه تأكيدٌ على خُطُورةِ هَذَا المَنْهِيّ عَنْهُ ؛ لِذَلِكَ ؛ فالاجتنابُ أشدُّ من التَّحريمِ .

ولكِنْ (بعضُ !) أهلِ الضلالِ مِمَّنْ فَسَدَتْ عُقُولُهم قالوا : إنَّ الله قال : ﴿ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ ؛ أي : لم يَقُلْ : إنَّهُ حرامٌ ، وهؤلاء يفهمون النُّصُوصَ على أهوائهم !! ولا يفهمونَ الأدلةَ الشَّرعيَّةَ على وجهِهَا !!

● هناك أحكامٌ كانت في الشرائعِ السابقَةِ مُوَافَقَةً لِشَرِيْعَتِنَا ؛ فَنُؤْمِنُ بِهَا :

مِثْلُ : التوحيدِ ؛ فَهُوَ فِي كُلِّ الشَّرَائِعِ ؛ قَالَ – تَعَالَى – : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦] ؛ فكلُّ الشرائع جاءت بعبادَةِ الواحِدِ الأحَدِ ؛ فَمَا أرسَلَ اللهُ نَبِيًّا ، ولا رَسُولاً ؛ إلاَّ أَمَرَهُ أن يدعو الناسَ إلى التوحيْدِ ؛ سواءٌ في التوراةِ أو الإنجيلِ ، أو غيرِ ذلك .

فالنَّصَارى واليَهُودُ قد حَرَّفُوا هذا ؛ فادَّعَتِ اليهودُ أنَّ (عُزَيرًا) ابْنُ اللهِ ، والنَّصَارَى قَالَتْ : المَسِيْحُ ابْنُ الله !! فسَيُحَاسَبُون على هذا الادَّعَاءِ الكاذِبِ ، ولكِنَّ جميعَ الشرائعِ : دَعَتْ إلى عبادةِ اللهِ الوَاحِدِ الأحَدِ .

وأيضًا ؛ جاءت الشرائعُ كلُّها بِتَحْرِيمِ : الخَمْرِ ، والزِّنَا ، والقَتْلِ ؛ فهَذَا من الأشياءِ التي اتفقت فيها الشرائِعُ ، ونعملُ بها ، ولكِنَّ الأشياءَ التي حرَّف فيها هؤلاءِ ، وأدخلوا أشياءَ في الدِّيْنِ ما أنزل الله بِهَا من سلطانٍ ؛ فهذا لا نُؤْمِنُ بِهِ .

● وَعَلَيْنَا أَنْ نَرْضَى وَنُسَلِّمَ بأحْكَامِ اللهِ ؛ سواءٌ ظَهَرت لنا الحِكْمَةُ أم لم تَظْهَرْ :

هناك أحكامٌ في الشرعِ أظهرَ اللهُ لَنَا حِكْمَتَها ؛ كَالصِّيَامِ ؛ فَقَالَ – تَعَالَى – : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٨٣] ؛ فالحكمة منه : تحصيلُ التقوى ، وأحكامٌ لم تظهر حكمَتُهَا ، وَهَذَا امتحانٌ واختبارٌ للعبادِ ؛ حتى يَظْهَرَ الْمُسْتَسْلِمُ الْمُنْقَادُ لجميع أوامرِ ربِّهِ ؛ سواءٌ عَلِم الحِكْمَةَ ، أَوْ لَمْ يَعْلَمْها ؛ ليقيْنِهِ أن أحكامَ الله كلَّها خيرٌ .

◘ وكمثالٍ : حرَّم الله تعالى النَّمْصَ ، ولكنك ترى بعضَ النساءِ يَعْتَرِضْنَ على حُكْمِ اللهِ ، وتَقُولُ إحداهنَّ (مثلاً) : أنا مُنْتَقِبَةٌ ، ولا أحَدَ يَرَانِي غير مَحَارمي ، وأريد أن أتَنَمَّصَ لزَوْجِي ؛ فما المانع من ذلك ؟ فأقولُ لها : هذا الكلام تقولِيْنَهِ بعَقْلِكِ ؛ لكنَّ الله أمركِ أن لا تَمَسِّي حاجِبَيْكِ ؛ فلابُدَّ أن تقولي : سَمِعْنَا وأطعْنَا ؛ سواءٌ ظهرت الحكمةُ لك أو لم تظهر ؛ ونحنُ على يقينٍ أنَّ في ذلك حكمةً ومصلحةً ؛ لأن الله لم يأمُرْ بأمْرٍ إلاَّ وفيْهِ حكمةٌ ومصلحةٌ للعبادِ .

● ولِمَاذا لم يُظْهِرِ اللهُ لجميعِ عبادِهِ الحكمةَ في كلِ أحكامِهِ ؟

●● والجَوَابُ : حَتَّى تُخْتَبَرَ النُّفُوسُ والقُلُوبُ ، ويُخْتَبَرَ مَا فيها من يقينٍ عَلَى أنَّ أحكام الله كلها حكمة ومصلحة ؛ لأنها من عند حكيمٍ عليمٍ يَعْلَمُ مَا يُصْلِحُ العبادَ ومَا يُفْسِدُهم .

والاعتراضُ على أحكامِ اللهِ نتيجةَ ضعفِ إيمانٍ ، وأنَّ القلوب غيرُ سليمةٍ ؛ فلو اكتملَ الإيمان في القلْبِ لَسَلَّمْنا تسليمًا كاملاً لِكُلِّ أوامرِ اللهِ ؛ كَمَا كان حالُ الصَّحَابةِ الكرامِ مَعَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ فكان يَنْزِلُ عليهم الأَمْرُ مِنَ السَّمَاء ؛ فيبلغُهُم رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلكَ ؛ فيُذْعِنُوا ، ويقُولُوا : سمِعْنَا وأطَعْنَا .

● ولكِنَّ النَّفُوسَ لَمَّا مُلِئَتْ بِالشَّهَوَاتِ والشُّبُهَاتِ مَرِضَ القَلْبُ وفسَدَ :

مع كثرةِ المعاصي في كلِّ مكانٍ ، فأَنْتَ تَسِيْرُ في الطرقات تَرَى المُحَرَّمَاتِ والمنكراتِ ، وإذا جَلَسْتَ أمامَ التِّلفازِ شاهدْتَ المُحَرَّمَاتِ ، وهُنَا يَفْسُدُ قَلْبُكَ ، ويَنْقُصُ إِيْمَانُك ؛ لذلك إذَا عِلِمْتَ أَمْرًا من أوامِرِ الله ؛ فإمَّا أن يكون في صدْرِك حَرَجٌ منه ، أو تُنَفِّذَه بتباطُؤٍ ؛ فتَجْلِسَ مدَّةً كبيرةً ؛ لكي تأخُذَ خُطوةً إلى الأَمَام ، وإذا عزمْتَ وأخَذْتَ خطوةً للأمَامِ رجعْتَ مرةً أُخْرَى بسبَبِ عدمِ تَسْلِيْمِكَ الكامِلِ لأوامر اللهِ .

والجزاءُ من جنْسِ العمل ؛ فالعبد الذي يسْتَسلم لأمْرِ ربِّهِ ، ويَنْقَادُ ، ويَرْضَى بقضائِهِ وقدرهِ ؛ يُورثْهُ ذلك حلاوةً في قلبِهِ ؛ ألا وهي : عدمُ الاعتراضِ ؛ لأنَّ هَذَا الاعتراضَ الدَّاخِليَّ سببٌ في تمزُّقِ القلب ، وعدمِ الراحة والطمأنينة ، ولكن إذا استسلَمْتَ لأوامر الله ، وانقَدْتَ لها أنزل الله عليك بَرْدَ السَّكِيْنَةِ والرِّضَا ؛ فلا تَشْعُر بهذا التَّمَزُّق الذي في قُلُوب كثيرٍ من الناس ؛ فلا هم مع أهل الدنيا ، ولا هم مع أهل الاستقامة ؛ لذا ترى مَنْ هذا حالُهُ مُتْعَبٌ مُتَمَزِّقًا ؛ فلا هو قادرٌ على تنفيذ أوامر الله كلِّها ، ولا هو سعيدٌ مع أهل الدُّنْيَا ؛ فَهُوَ أَرَاد أن يُمْسِكَ العَصَا من الوَسَط ؛ فيريد أن يكون مع أهل الدُّنْيَا ، وَمَعَ أَهْلِ الآخرة ؛ فهذا الشَّخْصُ تَرَاهُ مُشَتَّتًا ، ولكِنَّهُ لو رَضِي بِقَدَر الله سبحانه وتعالى ونفَّذَهُ ، وقبِلَ شرعه كاملاً ؛ لوَجَدَ حلاوةً في قلبِهِ لا يعلمها إلا ربُّ العالمين ؛ لقولِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا » (١) .

● فحلاوةُ الإيْمَانِ :

هي الرضا والطمأنينةُ وعدمُ الاعْتِرَاضِ ، وهي مفقودةٌ من قلُوبِ كثيرٍ من الناسِ ، أو من كان في بداية التديُّنِ ؛ لِذَلِكَ هُوَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ :

---

(١) أخرجَهُ مُسْلِمٌ في " صحيحهِ " (٣٤) .

إمَّا أنَّهُ يَنْتَصِرُ على نفسِهِ وشهوتِهِ ، وينطلق في دينِ الله ، ويَشْعُرُ بهذِهِ الحلاوةِ ، ولا يعُودُ لِمَا كان عليه من عِصْيانٍ .

وإما أنْ يَنْتَكِسَ ويَعُودَ إلى العِصْيَانِ .

لذلك ترى (البَعْضَ) يَشْتَكِي ويَقُولُ : كان معي صديقٌ ، وكان مستقيمًا يَحْضُر دروسَ العلم ، ويحافظُ على الفروضِ والنوافلِ ، ثم انتكس !! لأنه أراد أن يُمْسِكَ العَصَا من النِّصْفِ ، وهذا لا يكون في دين الله ؛ فَهُوَ لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، وهذا عَمَلُ المُنَافقين ؛ فهو أرَادَ مُجَارَاةَ أهلِ الدُّنْيَا في عصيانِهِم ؛ حتى لا يَسْتَثْقِلُوه ، وفي نفسِ الوقتِ أراد أن يُرْضِي الله ، وهَذَا الشخص ؛ إما أن يَنْتَكِسَ ، ويرجِعَ عن طريقِ الحقِّ ، أو يظلَّ يعيشُ في قَلَقٍ وشَتَاتٍ وعَذَابٍ لا يعلَمُه إلاَّ ربُّ العالمين ، ولَنْ يَذُوقَ هَذِهِ حلاوةَ الإيمانِ التي ذكرها رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديْثِ ؛ فهذِهِ الحلاوةُ والطمانينةُ والسكينةُ لا تأتي ، ولا تَسْكُنُ القلْبَ ؛ إلا بَعْدَ الرِّضَا والتَّسْلِيْمِ لأوامر الله ؛ فالنبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا » ؛ فلابُدَّ من الرِّضَا حَتَّى يَسْكُنَ طَعْمَ الإيمان في قلبك ، وإن لم ترضَ بقضاء الله وشرعهِ لن تَسْكُنَ هذه الحلاوة في قلبك ، وستعيشُ مُذَبْذَبًا مُشتتًا مُتعبًا.

- **فالكتبُ السماويةُ التي نزلتْ على الرُّسُلِ :**

نزلت لبيانِ هذه الأمور وغيرِهَا ؛ فَبَيَّنَتْ المطلوبَ من العبدِ ، وما الذي يجعلهُ يستقِيْمُ ، وكيف يُحَصِّل سعادةَ الدنيا والآخرة ، وكيف يَصِلُ إلى رِضَا ربِّهِ ، وينالُ جناتِ النعيمِ ، وأيضًا : كيف يتجنب المَعَاصي والشهوات والشبهات فكلُّ هذا موجودٌ في الكتب السماوية ، وأعلاها القرآن (كلام الله) ؛ فخُتِمت به الكتبُ ، وخُتِمَتْ النبوةُ بِرسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ فلا كتابَ

بعد القرآنِ ، ولا نبيَّ بعد رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لابد أن نؤمن بكلِّ هذا ؛ حتى تستقيمَ الحياةُ ، ويستقيمَ الإيمانُ في القلوب ، ونشعُرَ بالسعادة التي فُقِدَت من قلوب كثيرٍ من المسلمين !

◘ الإيمانُ بالكتُبِ يُثْمِرُ ثَمَراتٍ جليلةً ، منها [1] :

● الأولى : العلم بفضل الله وعنايته بعباده ، وهو الغنيُّ عنهم :

فلا يحتاج عبادتنا واستقامتنا ولا صلاتنا ؛ فهو الغنيُّ عن العالمين ؛ فكان الله ولم يكن شيءٌ قبلَهُ ؛ فخَلَق الخَلْق لا لحاجةٍ ، ولا يزيدون في ملكه شيئًا ، ولا ينقصون من ملكه شيئًا ؛ فلابد أن يُفهم هذا جيدًا .

وهذا لا يحتاج إلى إثباتِ أنَّ الله قبل الخلق كان موجودًا ، ثم خَلَق الخَلْق ؛ فكان فوق سبع سمواتٍ ، مستوٍ على عرشهِ ، وكان لا يوجد سمواتٌ ولا جبالٌ ولا بحارٌ ؛ فخلق السموات والملائكة والكرسيَّ والعَرْشَ ولا حاجَةَ له إليهم ؛ فالمخْلُوقات كلُّها تحتاجُ إلى ربِّ العالمين ، وهو ليس في حاجةٍ إلى أحدٍ من مخلوقاته ؛ بل الكلُّ يقصد إليه ، ويلجأ إلَيْهِ ويَفْزَعُ ، ولابد أن نستيقن أنه إذا أمرنا بشيء ، ونهانا عن شيءٍ ؛ فهذا لمصلحةٍ لنا ، ومحضُ إحسانٍ منه أن يُبيّنَ لنا طريق الشَّرِّ ، وطريق الخيرِ ، ويأمرنا أن نَسْلُكَ طريق الخير ، ونجتنبَ طريق الشَّرِّ ؛ فهذا محضُ تفَضُّلٍ منه وإحسانٍ ؛ فالحمد له على ذلك .

● الثانية : العلم بحكمةِ اللهِ في شرعِهِ ؛ حَيْثُ شَرَعَ لكلِّ أمةٍ ما يُنَاسِبُ أحوالَهُم :

قَالَ – تَعَالَى – : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة:٤٨] ؛ فأرسلَ لكلِّ قومٍ رسولاً برسالةٍ ، أو يُجَدِّدُ ما قاله مَنْ قبله ؛ فنؤمن بهذا ، ونعلم أن الله سبحانه وتعالى له حكمةٌ في هذه

---

[1] " شرح الثلاثة أصول " – للعثيمين – (ص : ٤٨) .

الشرائع ، وله حكمةٌ في أن تكون الشرائعُ مختلفةً ، وكلُّ شريعةٍ لها رسولٌ يبلِّغُها ؛ لأنَّ كلَّ قومٍ لهم ما يُنَاسِبُهُم مِنَ الشرائعِ والأحكامِ إلى أن أنْزَلَ القرآنَ الذي يَصْلُحُ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ ، ولكلِّ الإنسِ والجِنِّ .

◘ قَالَ المُصَنِّفُ : (وَرُسُلِهِ) :

📖 الشَّرْحُ : الرُّسُلُ : جَمْعُ رَسُولٍ .

● قَالَ ابْنُ فارسٍ : " الرَّاءُ وَالسِّينُ وَاللَّامُ أَصْلٌ وَاحِدٌ مُطَّرِدٌ مُنْقَاسٌ، يَدُلُّ عَلَى الِانْبِعَاثِ وَالِامْتِدَادِ " (١) .

قال ابْنُ الأنباريُّ : وَالرَّسُول مَعْنَاهُ فِي اللُّغَة الَّذِي يُتَابع أَخْبَار الَّذِي بَعثَه ؛ أُخِذَ مِنْ قَوْلِهِمْ : جَاءَتِ الإِبِلُ رَسْلًا ؛ أَي : مُتَتَابِعَةً .

وسمِّيَ الرسولُ رَسُولاً ؛ لِأَنَّهُ ذُو رَسول ؛ أَي : ذُو رِسَالَة، وَالرَّسُول اسمٌ من أَرسلْت ، وَكَذَلِكَ الرسَالَة (٢) .

● هناك نزاعٌ بَيْنَ أَهْلِ العِلْمِ فِي الفَرْقِ بَيْنَ النَّبِيِّ والرَّسُولِ عَلَى أقوالٍ كَثِيْرَةٍ :

فمِنْهُم مَنْ قال : إنَّ الرَّسُولَ هو مَنْ جَاءَ بِرِسَالَةٍ ، وجَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيُبَلِّغَ .

ومِنْهُم مَنْ قال : إنَّ النَّبِيَّ لا يُبَلِّغُ ، ولكِنْ يُجَدِّدُ الرسالةَ .

● وقال شيخُ الإسلامِ – رحمه الله – :

---

(١) " مقاييس اللغة " (٣٩٢/٢) .

(٢) " تهذيب اللغة " (٢٧٢/١٢) .

" فالنبيُّ هو الذي ينبِّئُهُ الله ، وهو يُنَبِّىءُ بِمَا أَنْبَأَ اللهُ بِهِ ؛ فإن أُرسل مع ذلك إلى مَنْ خَالَفَ أَمْرَ اللهِ لِيُبَلِّغَهُ رسالةً من الله إليه ؛ فهو رسولٌ ، وأما إذا كان إِنَّمَا يعملُ بالشريعة قبلَهُ ، ولم يُرْسَلْ هُوَ إلى أحدٍ يبلغه عن الله رسالة ؛ فهو نبيٌّ ، وليس برسولٍ " (١) .

فيجبُ عَلَى العبدِ أَنْ يؤمن بالرُّسُلِ جميعًا مَا عَلِم منهم وما لم يَعْلَم ، فيؤمن أنَّ اللهَ أرسلَهُم لهدايةِ البَشَر إلى طريقِ الصوابِ ، وهم مَعْصُومُون من جهةِ البلاغِ والرسالةِ .

فلا يُخْطِئُون في التبليغ عن الله ؛ فلهم العصمة في التبليغ مطلقًا ؛ فليس هناك نزاعٌ في ذلك.

● ولكِنْ أهلُ العلم : تنازعوا في أنه هلِ النَّبِيُّ أو الرَّسُولُ يُخطِئُ في الأمورِ الدُّنْيَوِيَّةِ كبَشَرٍ ؟

فمنهم من جعله معصومًا (أيضًا) في الأمور الدنيوية ، ومنهم من قال : إنَّهُ بشر يخطئُ ، ولكِنْ أخطاؤُهم قليلةٌ جدًّا .

والراجح : أنه يمكن أن يخطِئُ أخطاءً قليلةً ؛ لأنه بَشَرٌ ، والبَشَرُ يُخْطِئُون ؛ لأنه إذا لم يخطئُ أصبح مَلاكًا ، والبَشَرُ لَيْسُوا ملائكةً ، ولم يُرِدِ اللهُ سبحانه أن تكون الأنبياءُ والرُّسُلُ ملائكةً ، ولَكِنْ أَرَادَ أن يكُونُوا من جِنْسِ البَشَرِ ﴿ وَما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ [الفرقانُ : ٢٠].

● أَوَّلُ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَى العِبَادِ :

هو نوحٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بدَلِيْلِ حَدِيْثِ الشفاعةِ الطَّوِيْلِ ، وَفِيْهِ : أنَّ نوحًا قال : « ائْتُوا نُوحًا، أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ » (٢) .

فأَوَّلُ رَسُولٍ هو نوحٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ فآدَمُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان نبيًّا ، وآخَرُ رسولٍ

---

(١) " النبوات " (٢/٧١٤).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٥٦٥) ، ومسلِمٌ (١٩٣) .

هو نبيُّنا محمدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [الأنبياء:٤٠] ؛ فهو رَسُولٌ مِن الله ، وخاتَمُ النَّبِيِّيْنَ .

● الدُّعاةُ ورثةُ الأنبياءِ :

كلُّ أمةٍ لم تَخْلُ من رَسُولٍ أو نَبِيٍّ يُرْسِلُهُ الله للعباد ؛ قال – تَعَالَى – : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥] ؛ فما هناك أمةٌ من الأمم ، إلاَّ واللهُ سبحانه وتَعَالَى يُرْسِلُ لَهُ الرَّسُولَ ؛ حَتَّى يُجَدِّدَ لهم الإيمانَ ، ويُعَلِّمَهم الحق ، ويعرفَهُم طريقَ الجنةِ وطريقَ النَّارِ ، ثُمَّ رُفع الوحيُ ، وماتَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولن يأتِيَ رُسُلٌ ولا أنبياءُ بَعْدَهُ .

◘ والسُّوالُ : فكَيْفَ حالُ الأُمَمِ التي أَتَتْ بعد ذلك ؟ ومَنْ الذي سَوفَ يُبَلِّغُهم ؟

● والجوابُ : الدُّعَاةُ ؛ لأنَّ وظيفتهم هي وظيفةُ الأنبياءِ في أن يُبَصِّرُوا الناسَ ويُعَلِّمُوهم ، ويُرْشِدُوهم إلى الحق ؛ كما جاء في قولهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ" (١) ؛ فلم يورثوا ذهبًا ولا فضة ، ولكن ورَّثُوا العِلْمَ النَّافعَ ؛ فالذي يَدْعُو إلى دين الله ، وأخْلَصَ للهِ ، وأصبح هَمُّه إصلاحَ العبادِ ، وليس له حظٌّ نَفْسٍ ، يَعْلَمُ أنه وَرِثَ من الأنبياء أعظمَ ميراثٍ ، وأبْرَكَ تَرِكَةٍ ؛ فالدُّعَاةُ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ لهم أعْلَى منزلةٍ ؛ فَخَيْرُ من يَطَأُ الأرضَ بِقَدَمِه الدَّاعِي المُخْلِصُ ؛ فنسأل الله أن يرزقنا الإخلاص .

● وكذَلِكَ أَوَّلُ مَنْ يُسَعَّر بِهِ النَّارُ : الدَّاعِي :

وذلك ؛ إِذَا لم يُخْلِصْ دعوتَهُ ، ويجعلْهَا خالِصَةً لله ؛ فهو أَوَّلُ من يُسَعَّرُ بِهِ النَّارُ ؛ كما جاء في "

(١) رواه أبو دَاودَ (٣٦٤١) ، وابن ماجه (٢٢٣) ، والترمذيُّ (٢٦٨٢) ، وهو في " صحيحِ " أبي داود – للعلامةِ الألبانيّ – .

صحيح " مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « .. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ » (١) .

وَقَالَ أَحْمَدُ بنُ إِبْرَاهِيْمَ الدَّوْرَقِيُّ : حَدَّثَنَا يَحْيَى بنُ الفَضْلِ الأَنِيْسِيُّ، سَمِعْتُ بَعْضَ مَنْ يَذْكُرُ عَنْ مُحَمَّدِ بنِ المُنْكَدِرِ :

أَنَّهُ بَيْنَا هُوَ ذَاتَ لَيْلَةٍ قَائِمٌ يُصَلِّي ؛ إِذِ اسْتَبْكَى ؛ فَكَثُرَ بُكَاؤُهُ ؛ حَتَّى فَزِعَ لَهُ أَهْلُه، وَسَأَلُوْهُ ؟ فَاسْتَعجَمَ عَلَيْهِم، وَتَمَادَى فِي البُكَاءِ ؛ فَأَرْسَلُوا إِلَى أَبِي حَازِمٍ ، فَجَاءَ إِلَيْهِ ؛ فَقَالَ : مَا الَّذِي أَبكَاكَ ؟

قَالَ : مَرَّتْ بِيَ آيَةٌ.

قَالَ: وَمَا هِيَ ؟

قَالَ : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُوْنُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر : ٤٧] .

فَبَكَى أَبُو حَازِمٍ مَعَهُ ؛ فَاشتَدَّ بُكَاؤُهُمَا (٢) .

فلا أحد من الدعاة يعلم يوم القيامة ماذا يبدُو مِنَ الله لَهُ !! نسأل الله السلامة ، وأن يصلح قلوبنا وأحوالنا ، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل ؛ فهذا الأَمْرُ رَغْمَ مَنْزِلَتِهِ العاليةِ إِلاَّ أنه شديدٌ .

---

(١) أخرجه مُسْلِمٌ (١٩٠٥) .

(٢) " سير أعلام النبلاء " (٣٥٥/٥).

● فالدَّعْوة سلاحٌ ذُو حَدَّيْنِ :

فإما أن تُجَاهِدَ بِهَا وتنافِحَ عَنِ الكتابِ والسنةِ ، وتُرزقَ إخلاصًا في القول والعمل ، وإما أن تكون أول من يُسَعَّرُ بِهِ النَّارُ !! فليس هناك أمرٌ ثالثٌ ؛ فلن يَقِفَ الأَمْرَ عَلَى أن لا تُقبلَ دعوةُ المرائِي ؛ فالشَّخْصُ الذي لا يَعْمَلُ في الدَّعْوةِ يُمْكِنُ أن يَعْمَلَ أَعْمَالاً ؛ فمنها ما يُقبل ، ومنها ما لا يُقبل ، وقد ينْجُو على ذلك ، ولكِنَّ الدَّاعِي ليس كذلك ؛ لأنه اشْتَرَى بآياتِ اللهِ ثمنًا قليلاً ، مِثْلَ مَنْ يَخْرُجُ عَلَى المِنْبرِ لِيَسْتَعْرِضَ بِالعِلْمِ الذِي عِنْدَهُ ، وكذلك الدَّاعِيَةُ ؛ فيُثْنِي النَّاسُ عليْهِما ؛ فيقالُ لَهُمَا : قد قِيْلَ ! ثم يُسْحَبَا على وَجْهِهِمَا في النار ، ولا ينفعُهُما باقي أعمالهم ؛ فالدَّاعِي يَظَلُّ على خَطَرٍ إلى أن يَلْقَى الله ؛ فلا يَهْدَأُ لَهُ بَالٍ ؛ لأَنَّهُ يَعْلَمُ خُطُورةَ الأَمْرِ.

وكان الحسَنُ البَصْرِيُّ يَقُولُ : إنَّ خَفْقَ النِّعَالِ حَوْلَ الرِّجَالِ قَلَّمَا يُلْبِثُ الحَمْقَى ([1]) .

فهذا الحَسَنُ البَصْرِيُّ الإمَامُ العَلَمُ الذي كان يُقَال فيهِ : كلامُهُ يُشْبِهُ كلامَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ من شدةِ لَبَاقَتِهِ ، وحُسْنِ كَلامِهِ وبلاغتِهِ ، ومع ذلك كان يَخْشَى على قَلْبِهِ ؛ فالأعدادُ الغفيرةُ ، والجَمْعُ الكَبيرُ حَوْلَ الدَّاعي قد يكُون سَبَبًا في فِتْنَتِهِ .

فالرُّسُلُ – كَمَا ذَكَرْنَا – بَشَرٌ جَائِزٌ أن يُخْطِئُوا ، ولكن لَيْسَ فِي التبليْغِ ، وَيَفْعَلُون ما يَفْعَلُ البَشَرُ ، يَنَامُونَ ، ويَتَزوَّجُون ؛ لَيْسَ لهم أيُّ صفةٍ من صفاتِ الرُّبُوبِيَّةِ ، وَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : " إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ ؛ فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي " ([2]) ؛ فَقَالَ هَذِهِ القولة لَمَّا نَسِي في الصلاةِ الرباعيَّةِ ، وجعلها ثنائِيَّةً ؛ فسألوه : أَنَقُصَتِ الصلاة ؟ فَدَلَّ هذا الحديثُ على أنه جائِزٌ أن يَنْسَى ، ولا حَرَجَ فِي ذَلِكَ مَا دامَ أن هذا الشئَ قد بلَّغهُ لأمتهِ ولأصحابهِ ؛ فإذا مَا

([1]) رواهُ الدارميُّ في " السننِ " (٥٧٤) ، والبيهقيُّ في " المدخلِ " (٤٩٧) بإسنادٍ صحيحٍ . و" يلبث " : من اللبث ، وهو المُكْثُ والتَّوَقُّفُ . (" حاشية السير"٥٧٥/٤ ط الرسالة) .

([2]) أخرجه البخاريُّ (٤٠١) .

نَسِي النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الشئَ ذكَّرُوهُ بِهِ ؛ فَيَتَذَكَّرُ .

◘ الإيمانُ بالرُّسُلِ يَتَضَمَّنُ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ[1] :

● الأوَّلُ : أنَّ مَنْ كَذَّبَ برسُولٍ واحدٍ ؛ فقد كذَّبَ كُلَّ الرُّسُلِ :

وهذا الأَمْرُ نَرُدُّ بِهِ عَلَى شُبُهَاتِ النَّصَارى ، وَنَقُولُ لهم : أنتم لا تؤمِنُون برسُولِ الله (مُحَمَّدٍ) صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وتُنْكِرُون رسالتَهُ ، ولكِنَّنَا نُؤْمِنُ بِعِيْسَى ومُوسَى وجميعِ الأنبياءِ ؛ لأنَّ دِيْنَنَا يأْمُرُنَا بالإيمانِ بجميعِ الرُّسُلِ ، ولو لم نؤمن برسُول واحدٍ ؛ فقد كَفَرْنَا ؛ لقولِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٥١) ﴾ [النساء: ١٥٠ و١٥١] ، أَثْبَتَ اللهُ الكُفْرَ للذي يؤمِنُ ببعضِ الرُّسُلِ ، ويكْفُرُ ببعضٍ ؛ فالذي يُؤْمِنُ (مثلاً) بمُحَمَّدٍ وعِيْسَى ، ولا يُؤْمِنُ بمُوسَى ؛ فهو كَافِرٌ.

يقولُ (بَعْضُ !) المُسْلِمين اليوم : إنَّ اليهود مُؤمِنُون بِنَبِيِّهِم مُوسَى ، وكذلك النَّصَارى مُؤمِنُون بِنَبِيِّهِم عِيْسَى ؛ فكلُّ واحدٍ له دِيْنُهُ الذي يؤمِنُ بِهِ ؛ فلهم دينُهُم ولنا ديْنَنَا ، ويعتقدون (أيضًا) أنَّ اليهودِيَّ لو أطاع الله دَخَلَ الجنة ، وكذلك النَّصْرَانِيَّ ، وهذا ضلالٌ مبينٌ ؛ لأنَّ الذي يَكْفُرُ برسولٍ واحدٍ يَخْرُجُ من الملة ؛ فكيف بِمَن كَفَر برسولٍ ، وجعل لله شريكًا وولدًا ؟!! قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة:١٧] ، وقال : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ [المائدة: ٧٣] ؛ فأين أنتم من هذه الآيات ، ولكنهم لا يَقْرَءون كتابَ اللهِ ؛ فَكُلُّ هَذَا فَسَادٌ في الاعتقادِ مَلأَ قُلُوب العبادِ وأَفْسَدَهَا ؛ فالذي يَكْفُرُ برسُولٍ واحِدٍ يَخْرُجُ مِنَ المِلَّةِ .

---

[1] " شرح الثلاثة أُصُول " – لابن عثيمين – (ص :٤٩).

● تكذيبٌ برسولٍ واحدٍ تكذيبٌ للرُّسُلِ جَمِيْعِهِمْ :

قال سبحانه : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء:١٠٥] لَمَّا أُرْسِلَ نُوحٌ إلى قومِهِ لم يَكُنْ قبلَهُ رسولٌ – ؛ فنحن ذكرنا ذلك في حديث الشفاعة – ؛ فلِمَاذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ؟ لأن الذي يُكذِّبُ بِنُوحٍ يَكُونُ قَدْ كذَّب كُلَّ الرُّسُلِ التي ستَأْتِي مِنْ بَعْدِ نُوحٍ حَتَّى وإن لم يَرَهُم ؛ فتكذيبٌ برسُولٍ واحدٍ تكذيبٌ للرّسُلِ جميعِهِم ، ومن كذَّب بالرسل ؛ فقد كَفَرَ ، والنصارى يُكَذِّبُون بالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولا يؤمنون بِهِ ؛ رَغْمَ أنه مذكورٌ عندهم في الإنجيلِ !! فلماذا يُكَذِّبُونَ بهِ ؟!!!!

● الثاني : الإيمانُ بِمَنْ عَلِمْنَا اسْمَهُ مِنْهُمْ :

فهناك أسماءٌ ذُكِرَتْ في القرآن للأنبياءِ والمُرْسَلِيْنَ ، وهناك أنبياءٌ لا نَعْلَمُ أسماءَهُم ، ولَسْنَا مُكَلَّفِيْنَ أنْ نَعْلَم ذلك ؛ فقد ذُكِرَ في القرآن نوحٌ وعِيْسَى وآدَمُ وإبراهِيْمُ ومُحَمَّدٌ ويونُسُ ويُوسُفُ وسُلَيْمَانُ وغَيْرُهُم ؛ فكلُّ هؤلاءِ الأنبياءِ الذين ذُكِرَتْ أسماؤهم في القرآن نُؤْمِنُ بهم والأنبياءُ الذين لم تُذكر أسماؤهم نؤمِنُ بهم إجمالاً ؛ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر:٧٨] ؛ أي : ذَكَرْنَا أسماءَ بَعْضِهِم لك ، وهناك منهم لم نَقْصُصْهُم عليك ؛ فلم نَحْكِ عنهم شيئًا ، ولكِنَّنَا نُؤْمِنُ بأنَّ الله سبحانه وتعالى أرسلَهُم .

وهناك مِنَ الأنبياءِ خَمْسَةٌ هم أولوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومُحَمَّد لقولِهِ – تَعَالَى – : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزابُ :٧] ، وقولِهِ : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى:١٣] ؛ فهم أفضلُ الرسلِ على الإطلاقِ ، وأفضلُهُم : النَّبِيُّ (مُحَمَّدٌ) صَلَّى اللهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ إبراهيمُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ مُوسَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وتَنَازَعُوا بَيْنَ عِيْسَى ونُوحٍ ؛ مَنْ أفضلُهُم ؟

ولقد قال رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " ([1]) ، واللهُ – عزَّ وجلَّ – ذكَرَهُ في أولهم ؛ في قولِهِ : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزابُ : ٧] .

● الثالثُ : تَصْدِيْقُ مَا صَحَّ عَنْهُم من أَخْبَارٍ:

فالأخبارُ التي جاءت عَنْهُم في الكتابِ والسنةِ يَجِبُ تصديقها ؛ فجاءت أخبارٌ عن نوحٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ فيجب علينا أن نصدقَهَا ، وليس كما يحدث (الآن) حين نرى من يستهْزِئُ بسفينَتِهِ ؛ فهذا الاستهزاءُ قد يُخْرِجُ الشخص من الملَّةِ وهُوَ لا يَشْعُرُ إن لم يخرجهُ بالفِعْلِ ؛ فَذُكِرَ نوحٌ في القرآن ، وذُكرت سفينتُهُ (أيضًا) ، وكذلك ذُكرت قصةُ آدَمَ عليه السَّلامُ ؛ فيجب أن نُصدِّقَهَا ، وهَكَذَا ؛ فكلُّ ما جَاءَ من أخبارهم في القرآن ، أو في السُّنَّةِ الصحيحةِ نؤمنُ بِهِ ، ونقول : كلٌ من عند ربِّنَا ، ولا نعترض على شيءٍ ، ويكون إيمانُنَا جازمًا ، ليس فيه أيُّ شكٍ .

● الرابع : العملُ بشريعة مَنْ أُرْسِلَ إلينا منهم ، وهو خاتَمُهُم مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

إنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو من أُرْسِلَ إلينا ، وَهُوَ مَنْ نَزَلَتْ عليه الرسالَةُ ، وخُتِمَتْ بِهِ الرسالَةُ ؛ فنُؤْمِنُ بِهِ ، ولكن الشرائع الأخرى نؤمن بها إجمالاً ، ولكِنْ عَلَى التفصيل ، وما حَدَث لَهَا من تحريفٍ ؛ فلا ؛ فإذا ثبت عندهم شيءٌ ، ووجدْنَاهُ في القرآن ، أو أقرَّهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السُّنَّةِ ؛ فنؤمِنُ به ؛ أما الخُرَافَاتُ التي في كتبهم ؛ فلا نؤمن بها ؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ

([1]) أخرجه مُسْلِمٌ (٢٢٧٨) .

عَنْهُ، قَالَ: كَانَ أَهْلُ الكِتَابِ يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ بِالعِبْرَانِيَّةِ، وَيُفَسِّرُونَهَا [ص:٢١] بِالعَرَبِيَّةِ لِأَهْلِ الإِسْلاَمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ وَلا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: {آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا} [البقرة: ١٣٦] الآيَةَ " (١) ، وقال النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ ؛ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ ، وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ ، وَقُولُوا: آمَنَّا بِاللهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، فَإِنْ كَانَ حَقًّا لَمْ تُكَذِّبُوهُمْ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا لَمْ تُصَدِّقُوهُمْ » (٢) ؛ كالقَصَصِ والحكات التي تُحْكَى عندهم ؛ فلا نَجْزِمُ بِصِحَّةِ إلاَّ ما ثَبَتَ فيه نصٌّ .

● ثَمَرَاتُ الإِيْمَانِ بالرُّسُلِ (٣) :

● الأولى : العلم برحمةِ الله تَعَالَى وعنايتِهِ بعباده :

حيث أَرْسَلَ إليهم الرسلَ ؛ لِيُبَيِّنُوا لَنَا طريقَ الصوابِ والحقِّ ، ويرشِدُونَا إلى ما يُحِبُّ اللهُ ويَرْضَى حتَّى نَدْخُلَ الجَنَّةَ .

● الثانية : شُكْرُ اللهِ على هذه النعمةِ :

فلابد أن نَشْكُرَ هذه النعمَةَ الكبيرةَ ؛ قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [آل عمران:١٦٤] ؛ فمنَّةٌ مِنَ الله أن يُرْسِلَ لَنَا رسولًا يُعَلِّمُنَا ويُبَصِّرُنَا ، ويُبَيِّنُ لَنَا طريق الجَنَّة والنَّارِ ، وشكْرُ هذه النعمةِ بطاعةِ الرسولِ واتباعِهِ ، واتباعِ سنتِهِ والذَّبِّ عنها ، ونَشْرِ سُنَّتِهِ مَا استَطَعْنَا إلى ذلك سبيلًا .

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٤٨٥) .

(٢) رواه أحمد في " مُسْنَدِهِ " (١٧٢٢٥) ، وصحَّحَهُ الألبانيُّ في " الصحيحة " (٢٨٠٠) .

(٣) " شرح الثلاثة أصول " – لابن عثيمين – (ص :٥٠) .

● الثالثة : محبةُ الرُّسُلِ عليهم الصلاةُ والسلامُ ، والثَّنَاءُ عليهم :

لأن الله يحِبُّهم ؛ فلابُدَّ أن نحبّهَم ، والمحبة مقتضاها : الاتباع ؛ فليست قولا فقط ، ولكن لابد أن تكون المحبةُ موافقةً للشرع ؛ فلا إفراط ولا تفريط ؛ فلا محبة تجعلُكَ تَقَعُ في خرافاتٍ ، وتُنَزِّلُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منزلةً أَكْبَرَ من منزلتِهِ ، وتجعلُهُ كأنَّهُ إلهٌ يُعْبَدُ من دون الله ، ولا تفريط ؛ فيكون عندك جفاءٌ أن لا تعرف شيئًا عنه ، ولا عن اسْمِهِ ! ولا عن سيرتِهِ وشمائله ، وعبادته ومعاملته ؛ فهذا جفاءٌ كاملٌ .

● كيف تُحِبُّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأَنْتَ لا تَعْلَمُ عَنْهُ شيئًا ؟!

فكيف تحبُّهُ وتتبعُهُ ؟! وكيف تَحْزَنُ إذا وجدْتَ السُّنَّةَ تُرِكَتْ ؟ والبِدَعُ انتشرتْ ؛ فالدِّيْنُ يُحَارَبُ في مشارق الأرض ومغاربها ، والشبابُ تراهم يَضْحَكُون !! ومن السِّينما للَّعَبِ على الهاتف والشبكات العنكبوتية ، للجلوس على المقاهي ؛ فهؤلاء هم شباب المسلمين الآن – إلا من رحم الله – ؛ فأصبحوا لا يحملون هَمَّ الدين ؛ لأنهم لا يعلمون شيئًا عن دينهم ، ولا عن نبيهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فحتَّى تحِبَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ لابُدَّ أن تَعْرِفَهُ ؛ فتقرَأَ سيرتَهُ ، وتعلَمَ ما لاقاهُ من الأذى ؛ لكَيْ يَصِلَ لَنَا هذا الدينُ ، ولابُدَّ أن تَعْلَمَ بكاءَهُ ؛ خوفًا علينا ، وهو لم يَرَنَا ؛ فلا تَظُنَّ أنه كان يَبْكِي على أصحابِهِ ؛ فهو كان يَعْلَمُ أنَّ أصحابَهُ في الجنة ، ونزلت الآية برضوان الله عليهم ، وهو حيٌّ ؛ فهو كان يَبْكِي علينا نحن الذين لم يَرَنَا ؛ فهو كان يعلم أن بعد موته ستحدث الفتن العظامُ ، ونحن لا نبكي على أنفُسِنَا ، ولا نبكي شوقًا لرؤيتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولا تشتاقُ القلوبُ للشُّرْبِ من حوضِهِ يوم القيامة ، ولا أن نجتمع معه في الجنة ؛ فالقلوب التي فيها هذه المشاعِرُ قليلةٌ جدًّا .

● فكيْفَ تَعْصِيْهِ ، ثُمَّ تَدَّعِي مَحَبَّتَهُ ؟!

فترى بعض شبابِ الأمَّةِ يَجْلِسُ على المَقَاهِي ، ويَعْصِي اللهَ نهارًا جهارًا ، ثم يزعمُ أنَّه يحِبُّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !! وهو كاذبٌ ؛ فلو كان يحبُّهُ مَا جَلَس هذه الجِلْسَةَ ، أو شَرِبَ المُحَرَّمَاتِ ؛ فَلَوْ كنت تحبُّهُ لاستَبْدَلْتَ مَا تفعلُهُ بطاعتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ فالحُبُّ أصبَحَ عند الشَّبَابِ مُجَرَّدَ سماعِ (أغنيةٍ !!) عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الهاتِفِ ، مثل : الصوفية ؛ فَحَصَرُوا حُبَّ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أُغْنِيَةٍ فيها موسِيْقَى ، وهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ممن حرَّم الموسيقى ؛ فلو كنتَ تحبُّهُ صدقًا ما سمعتُهَا ؛ فكَيْفَ تَعْصِيْهِ ، وتَدَّعِي مَحَبَّتَهُ ؟!!

ولقد قال – تَعَالَى – : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة:١١١] ؛ فالمُحَبَّةُ لها مَعَانٍ سامية ، ولابُدَّ لها من برهانٍ ودليلٍ ظاهرٍ ؛ فأين دليلُ حبِّك للنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ فانظر كيف كان يحبُّه الصحابةُ الأفاضلُ ؛ فإذا أردت أن تعرف نفسَكَ صادقًا أم كاذبًا ؛ فَقِسْ حبَّكَ وتضحيَتَكَ ، وبَذْلَكَ ، وعطاءَك للدِّين وللسُّنَّة بجانبِ بَذْلِ وعطاءِ الصحابةِ الكرامِ ، وأنت تعرف أنك كاذبٌ ؛ قَالَ – تَعالَى – : ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٨] ؛ فالصادقون سيُسْأَلُون ؛ فكَيْفَ بِنَا ، ونَحْنُ ندَّعي محبةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ كَذِبًا ؟ فلو كنت تحبُّهُ لاتبعتَهُ في أقوالِهِ وأفعالِهِ ، وفي أوامرِهِ ونواهيهِ ؛ فتنظر بما أمرك وتفعله ، وما نهاك عنه ؛ فتجتنبه ، وتحرص على التَّأَسِّي بأخلاقِهِ ومعاملاتِهِ .

◘ قَالَ المُصَنِّفِ : (واليَوْمِ الآخِرِ) :

📖 الشَّرْحُ :

الإيمَانُ باليَوْمِ الآخِرِ يَتَضَمَّنُ ثَلاثَةَ أُمُورٍ[1] :

---

[1] " شرح الثلاثة أصول " – لابن عثيمين – (ص:٥١).

● الأول : الإيْمَانُ بالبَعْثِ :

فلابُدَّ أن نؤمِنَ بأنَّ اللهَ سبحانه وتعالى يَوْمَ القيامَةِ سَيَبْعَثُ المَوْتَى مِنَ القبور ، ثُمَّ يَذْهَبُون إلى أرضِ المَحْشَرِ ، ويَبْدَأُ الحِسَابُ ؛ مِنْ تَطَايُرِ الصُّحُفِ ، والمُرُورِ عَلَى الصِّرَاطِ ، والمِيْزَانِ ، ومعاتَبَةِ الرحمنِ لعِبَادِهِ .

وأهوالٌ غَيْرُ ذَلِكَ كثيرةٌ (جدًّا) تحتاج إلى مزيدِ تفصيلٍ ، ونحن نذكرها (هُنَا) على وجه الإجمال :

فنؤمن بالبعثِ والنُّشُورِ ؛ قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

وقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا » (١) .

فبعد المَوْتِ هُنَاكَ بَعْثٌ وحِسَابٌ ونُشُورٌ ووقُوفٌ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ سبحانه وتعالى ، وَسَنَقِفُ حفاةً عُرَاةً غُرْلاً ؛ فَحَتَّى مَا قُطع أثناءَ الخِتَانِ كُلُّ هذا سَيُرَدُّ مَرَّةً أُخْرَى إلى صاحبِهِ ، ويَقِفُ عاريًا ؛ كما وَلَدَتْهُ أُمُّهُ .

ويؤتَى بجهنم لها سبعونَ ألْفَ زمامٍ ، وعلى كل زمام سبعون ألْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا (٢) ، وعُمْقُهَا

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٥٢٧) ومسلِمٌ (٢٨٥٩) عَنْ عَائِشَةَ .

(٢) روى مسلمٌ في " صحيحِه " (٢٨٤٢) عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا » . وقد أُعلَّ بالوقفِ ؛ كما في " التتبع" للدارقطني (رقم : ٩٣) ، و" علل الهروي " – على مسلمٍ – (٤٣) . رواه عبد الله بن أحمد في زوائد" الزهدِ " (٨٦٥) ، وابن أبي شيبة (٣٤١١٧) ، والترمذي (٢٥٧٣) موقوفًا .

سبعون خريفًا ([1]) ؛ فأهوالٌ عظيمةٌ لا يعلَمُها إلا ربُّ العالمين ، فإمَّا إلى نارٍ أو إلى جنَّةٍ ، ليس هناك وسطٌ ؛ فلابد أن نؤمن بذلك .

إنَّنَا سَنُبْعَثُ بَيْن يَدَي اللهِ ، وسنُحَاسب على كل صغيرةٍ وكبيرةٍ ، وسنُجْزَى على أعمالِنَا ، وهناك صحيفةٌ مكتوبٌ فيها الحسنات ، وأُخرى مكتوبٌ فيها السيئات ؛ فلابد أن يكون عندنا يقينٌ جازمٌ في ذلك ؛ لأنَّ الكُفَّار كانوا يُنْكِرُون البَعْثَ ، ويتعجبون ، ويقولون : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (٤٨) ﴾ [الواقعة:٤٧-٤٨] ؛ فينكرونَهُ لجَهْلِهم !! ويَتَصَوَّرُون أنهم مادَامُوا قد ماتوا ، وصاروا تُرابًا ؛ كيف يُبعثون ، ويُسألون عن الآباء الأولين ؟!! فكَفَرُوا – من ثمَّ – بالله سبحانه وتعالى.

وقال – تَعَالَى – : ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤] ؛ فالبعثُ هَيِّنٌ عَلَى اللهِ ، وأنَّ إعادةَ الخَلْقِ أَيْسَرُ بكثيرٍ من البدايةِ .

● فالذي اخترع وصَنَعَ الطائرة ، وجعلها تَطِيْرُ ؛ فهل هذا أسهلُ أَمْ مَنْ يُكَرِّرُ صُنْعَها ؟

فأيُّهُما أَيْسَرُ ؟ هل مَنِ اخترع الفِكْرة ، أم من يُكَرِّرُ تَصنِيْعَها ؟

●● بِدَايَةُ الاختراع هي الأصعبُ ، ولكن إذا أعَدْنا تَصْنِيعَها ؛ فهذا أَيْسَرُ ، ولله المَثَلُ الأَعْلَى ؛ فابتداءً ؛ اللهُ عَلَى كل شيء قديرٌ ؛ فقد خلق آدمَ من ترابٍ ، ثم نَفَخ فيه الروح ؛ فإذا قِسْنَا الخَلْق على البعث ؛ فأيُّهُما أصعب ؟ فالخَلْقُ أصعبُ ، ولكن كلُّ ذلك على الله يسيرٌ ، ولكن نحن نُفَكِّرُ فِي أَيِّهما أعظمُ بدايةً : الخَلْق أم البعثُ ؟ قلنا : إنَّ بداية الخَلْق أعظمُ بكثيرٍ ، ولكن لا

([1]) روى مسلمٌ (٢٨٤٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : تَدْرُونَ مَا هَذَا ؟ قَالَ : قُلْنَا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا ، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الآنَ ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا.

شيء يَصْعُب عليه ، ولا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء ، هو القادر على كلِّ شيءٍ ، ولكن العقولَ إذا طُمِسَتْ ، والشهواتِ إذا غَلَبَتْ ؛ حدثَ كلُّ هَذَا !!

● اللهُ سبحانَهُ وتَعَالَى لم يَخْلُقِ الناسَ سُدًى ، ولم يتركْهُم هَمَلاً :

ثم بعد ذلك هناك من أنكر البعث ، وقال : ليس هناك حياةٌ بعد الموت ، هل أتى الله بك إلى الدنيا ، وأنزل إليك الكتب ، وبعث إليك الرسل ، وجعل لك شريعة تتحاكم إليها ، وفيها : افعل ، أو لا تفعل ؛ فهل كلُّ ذلك كان عبثًا ؟!

لقد قَالَ – تَعَالَى – : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٥] ؛ فهل تتصور أنك لا تعود إلى الله سبحانه وتعالى ، وأن الله خلقك عبثًا ؟!

ففي الدنيا على المستوى البشري ترفضُ أن يفعل بَشَرٌ هذا ، فهل يصح أن يأتي أحدٌ يقولُ : إنك ستدخل الجامعة ، وهذه الكتب سوف تدرسها ، وهذه مواعيدُ المحاضرات ، ثم يساوون بين الناجِحِ والرَّاسِبِ ؟! فهذا اسمُهُ عَبَثٌ ؛ فكيف يُساوون بين من ذَاكَر وتَعِبَ والتَزَمَ بالحُضُور ، وقرأ الكتب ، ونَجَحَ ، وبَيْنَ من لم يَحْضُر ، ولم يُذَاكِرْ ، وَرَسَبَ ؛ فلا أحدٌ يَقْبَلُ هذا ، وسَيُقَال على من فعل هذا : إنه سفيهٌ ؛ فكيف يَفْتَحُ جامعةً ، ويأتي بالطلبةِ ، ويُرْسِلُ لهم الدكاترة ؛ لتُدرِّس لهم ، وقد أحضر لهم الكتب ، ثُمَّ بعد ذلك يتساوى الكلُّ ؛ فهذا سفَهٌ ، وتَعَالَى اللهُ عن هذا علوًّا كبيرًا ؛ فنحن لا نقبل هذا على البَشَرِ ؛ فكيف نقبله على ربِّ البَشَرِ ؟!

● خَلَقَ الله الخَلْقَ لغاية :

لم يخلق اللهُ الناسَ سُدًى ، ولم يتركهم هملاً ، ولكنه خلقهم لغايةٍ واضحةٍ جليةٍ ذُكِرَت في القرآن ؛ قال – تَعَالَى – : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦] ؛ فذَكَرَ أنَّ العبادة هي أصلُ وجودِنا في الدنيا ، والذي يَغْفَلُ عَنْ هذا المعنى ؛ يعيش في شقاءٍ مستمرٍّ لا ينقطع عنه

؛ لأنك في الأصل خُلقت للعبادة ، ولتحقيق العبودية لله الواحد الأَحَدِ ؛ فلو مِلْتَ عن هذا الغَرَضِ ، وانشغلت بأغراضٍ أُخرى لم تُخلق من أجْلِها ؛ ستُعذَّب في الدنيا قبل الآخرة .

● وانظر إلى حالِ كلِّ مَنْ أَعْرَضَ عن هذه الغاية :

والتفتَ بقلْبِهِ إلى شيءٍ غيرِ العبادة ، ستراهُ في شقاءٍ وهمٍّ ؛ فانظر إلى مَنِ انشغلَتْ بأولادها فوق الحدِّ ؛ فلن يرضى عنها أولادُهَا ، وستراهم في آخِرِ الأَمْرِ يَعُوقُونَها ، ولا تَجِدُ عندها أيَّ راحةٍ أو طمأنينةٍ ؛ لأنها مَالَتْ عَنِ الهَدَفِ والمَقْصِدِ الذي من أجلِهِ خُلِقَتْ .

فنحْنُ خُلِقْنَا ؛ لنكون عَبِيْدًا لله سبحانه وتعالى ؛ نَتَأَلَّهُ لَهُ ، ونحقِّقُ العبودية لَهُ ؛ فهذا هو الأصلُ الأصيلُ ، والرُّكنُ الركينُ ؛ فاعْلَمْ .

● الثَّانِي: الإيمانُ بالحِسَابِ والجَزَاءِ :

إنَّنا سَنُبْعَثُ ؛ لكي نُحَاسَب على أعمالنا ، ونُجَازَى عَلَيْهَا ؛ قَالَ – تَعَالَى – : ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦)﴾ [الغاشية :٢٥-٢٦].

وقال سبحانَهُ : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام:١٦٠].

وقال : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧].

وفي " الصَّحيحين " (١) عن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : " إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي المُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٤٤١) ، ومُسْلِمٌ (٢٧٦٨) .

لَكَ اليَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الكَافِرُ وَالمُنَافِقُونَ ، فَيَقُولُ الأَشْهَادُ : ﴿هَؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨] " .

فالعبدُ المُؤْمِنُ الذي أرادَ به اللهُ الخيْرَ ، ويُرْجَى له أن يكون من أهل الجنة ، ولكنه له ذنوبٌ ؛ – ولا أحَدَ ليس له ذنوب – فيضع عليه سِتْرَهُ ورحمتَهُ ، ويقول له : أنت فعلتَ كذا وكذا ؛ فيعترفُ ، ويقولُ : نعم يارب ؛ فيقول الله له : سترتها عليك في الدنيا ، واليوم أغفِرُها لك ، وهذا فيه بشارةٌ جميلةٌ ، وهي : أنَّ العبد إذا أذنب ذنبًا ، ثم نزع وتاب وعاد وأقلع وندم ندمًا شديدًا ، وكلَّما تذَكَّر هذا الذنْبَ شَعَرَ بالخِزْي والألَمِ ، واستحْيَا من ربه ؛ فيُبَشَّر بأن الله سوفَ يَسْتُره يوم القيامة ، ولا يفضحه على رءوس الخلائق ؛ كما يستره فِي الدنيا ؛ لأن الجزاء من جنسِ العَمَلِ ؛ فَكَمَا أن الإنسان عاد وتاب ورجع إلى ربِّهِ الكريم ، وتعلَّق برحمتِهِ ، وهو التواب الرحيم ؛ فسيرحَمُهُ ، ويَعْفُو عنه ، ويَغْفِرُ له ، ويَسْتُرُه .

لذلك ؛ قال النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا المُجَاهِرِينَ " (١) ؛ فكلُّ إنسانٍ يمْكِنُ أن يعافِيَهُ اللهُ ، ويتوبَ عليه ؛ إلا مَنْ جاهر بالمعصية ؛ لأنه تحَدَّى مَلِكَ الملوك بالمَعَاصي ؛ فالرَّجُلُ الذي يتحدَّثُ مَعَ النساء الأجنبيات ، ويخرج معهن ، ويواعدُهُنَّ سرًّا ، ثم يصبحُ يجاهِرُ ، ويحكي مَا فعل معهن ؛ فهذا لن يعافِيَهُ الله ؛ لأنه لم يكتفِ بأنه عَصَى مَلِكَ الملوكِ الوَاحِدِ الأَحَدِ الجَبَّارِ القَهَّارِ ، ولم يَخْشَهُ ويخَافَهُ ؛ بل جَاهَرَ (أيضًا) بمعصِيَتِهِ !!

وأيضًا : قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٠٦٩) ، ومسلمٌ (٢٩٩) .

عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً » ([1]) ؛ فمَن هَمَّ بسيئةٍ ، ولم يفعلها ؛ ابتغاءَ مرضاتِ الله كتبها الله عنده حَسَنَةً ، ولكن مَنْ هَمَّ بسيئةٍ ، ولم يفعلها ؛ لأنه غيرُ قادرٍ على فعلها ؛ بل عَزَم على فعلها ، وشيءٌ منعَهُ ؛ ستكتَبُ سيئةً .

● مَنْ هَمَّ بحَسَنَةٍ وَلَمْ يَفْعَلْهَا :

كشخصٍ نَوى أن يَتَصَدَّق ، ثُمَّ ضاع المالُ ؛ كُتبَ له الأجْرُ ، وإذا هَمَّ بسيئَةٍ ؛ فلم يعملها كتَبَها الله عِنْدَه حسنَةً ، ولكن مَتَى ؟ إذا تركَهَا لله ؛ كمن كان يَنْوِي أن يَخْرُجَ مع امرأةٍ لا تَحِلُّ له ، ولكنه خَافَ مِنَ اللهِ ؛ فلم يفعل ذلك ؛ فتُكْتَبُ له حسنةٌ ؛ لأنه تَرَكَ ذلك ابتغاءَ مرضات الله ، ولكن إذا فعل هذه السيئةَ كُتِبَتْ عليهِ سيئةٌ واحدةٌ ؛ فانظر إلى رحمةِ اللهِ – تَعَالَى– .

● فمَتَى السَّيِّئَةُ لو هَمَمْتَ بها تُكَتَبُ سيئةً ؟

لو هَمَمْتَ بِالسيئةِ ، وعَزَمْتَ على فعلها ، ثُمَّ منعك مانعٌ ؛ كُتِبَتْ عليك سيئةٌ ؛ لأنَّ الترك (حينئذٍ) لم يكن لله ؛ بل كانَ لعارضٍ ؛ كما دلَّ على ذلك حديثُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِذَا التَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا ؛ فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ » ؛ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَذَا القَاتِلُ ؛ فَمَا بَالُ المَقْتُولِ ؟ قَالَ : « إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ » ([2]) .

فتأمَّل ! لما سأَلُوه : ما ذنبُ المقتولِ ؛ فبيَّن أنَّهُ لو تمكَّنَ لَقَتَلَ صاحبَهُ ؛ فَدَلَّ هذا على أنَّ مَنْ هَمَّ بالسيئة على وجْهِ (العزمِ) ، ولم يعمَلْهَا ؛ لِشَيءٍ خارجٍ عن إرادتِهِ ؛ أي : لم يُمَكَّنْ منها ؛ كُتِبَتْ عليهِ سيئةٌ ، ولكن إذا تركها ؛ ابتغاءَ مرضاتِ الله ؛ كُتبت له حسنةٌ ؛ فهذا هو المعنى المُرادُ من الحديثِ ، وبالله – تَعَالَى – التوفيقُ .

([1]) أخرجه البخاريُّ (٦٤٩١)، ومسلمٌ (١٣١) .

([2]) أخرجه البخاريُّ (٣١ و٦٨٧٥) ، ومسلِمٌ (٢٨٨٨) عَنْ أَبِي بَكْرَةَ .